# الصّحراء في الرّواية الجزائريّة الحديثة
# بين الواقعي والعجائبي

# The desert in the modern Algerian novel
# Between the real and the miraculous

د. عفاف صيفي♥

د. عمر عاشور♥

المُعرّف الرّقميّ للمقال:012-001-027-0114/33705.10 DOI

تاريخ الاستلام: 25-03-2024 تاريخ القبـول: 31-07-2024 تاريخ النّشر: 15-03-2025

**ملخّص:** يتناول هذا المقال حضور الصحراء في الرواية الجزائرية الحديثة من منظورين، منظور خارجي يمثله روائيون لا ينتمون إليها، فيرون فيها فضاء عجائبيا يعالجون من خلاله بعض الإشكاليات عن طريق التأمل الفلسفي ومنظور يمثل رؤية داخلية يمثله جيل جديد من الروائيين ينتمي جغرافيا إلى الصحراء ويرى فيها واقعا معيشيا يتم طرح قضاياه وفق رؤية واقعية أي أن الصحراء تحضر في الرواية الجزائرية الحديثة من منظوريْن تخيليين، الأول عجائبي يرى في الصحراء فضاء سحريا والثاني واقعي يطرح القضايا التاريخية والحياتية لهذا الفضاء.

**كلمات مفتاحيّة:** الصحراء؛ السرد العجائبي؛ منظور خارجي؛ منظور داخلي.

♥ المدرسة العليا للأساتذة–بوزريعة.

البريد الإلكتروني: saifi.afaf@ensb.dz (المؤلّف المرسل).

♥ المدرسة العليا للأساتذة–بوزريعة.

البريد الإلكتروني: achour.amar@ensb.dz.

**Abstract:** This article examines the presence of the desert in the modern Algerian novel from two perspectives: an external perspective represented by novelists who do not belong to it, who see it as a wondrous space through which they address some problems through philosophical contemplation, and a perspective that represents an internal vision represented by a new generation of novelists who geographically belong to the desert and see in it A living reality whose issues are presented according to a realistic vision, that is, the desert appears in the modern Algerian novel from two imaginative perspectives: the first is a wondrous one that sees the desert as a space for enjoyment, and the second is realistic and raises the historical and life issues of this space.

**Keywords:** Desert; miraculous narrative; external perspective; internal perspective.

**1. مقدّمة:** كيف تمثّلت الروايةُ الجزائريةُ الصحراءَ، خاصة وأن معظم الروائيين الجزائريين لا ينتسبون إليها جغرافيا؟ هل كتبوا عنها كتجربة وجودية معيشة، وبالتالي هي جزء من الواقعي في النص الروائي؟ أم كتبوا عنها في إطار التأملات لتدخل في الجزء التخييلي من الرواية؟ وهو ما يمثل في الحالة الأولى رؤية من الداخل تسمح بطرح تجربة وجودية سرديا، ورؤية من الخارج في الحالة الثانية تدخل في إطار العجائبي والخارق.

وفي هذه الدراسة سنقف أمام نموذج من حضور الصحراء في الرواية، حيث يجسد الروائي أحمد صديق الزيواني الرؤية من الداخل من خلال روايته «كاماراد» التي تعالج قضايا واقعية معيشة في الصحراء، قصد إبراز هذا الفضاء باعتباره يمثل هوية سردية وهوية ثقافية وحضارية، هوية بدأت تطفو

إلى العلن مع جيل جديد من الأدباء من أبناء الصحراء، علما أن المراجع حول الصحراء في الرواية شحيحة جدا إذا لم تكن نادرة.

**2.الصحراء هوية سردية:** دخلت الصحراءُ كتيمة جديدة في الرواية مجالَ البحث بمثابة فضاء أوسع للتأملات يسمح بتأويل أو إعادة قراءة معضلات وجودية طرحها فضاء المدينة ولم يعد قادرا على تبرير أو تفسير وجودها، سواء من طرف الروائيين الذين اتخذوا من هذا الفضاء ملاذا هروبا من المدينة أم من طرف أبناء الصحراء (جيل جديد من الروائيين) الذين اتخذوا منها معادلا موضوعيا لمعالجة قضايا واقعهم.

لقد ارتبطت الصحراء منذ القدم بالفقار أي غياب الحياة، وكون الرواية تعد فنا يرصد حركية مجتمع في لحظة تحول اجتماعي أو سياسي، فإن هذه الحركية تغيب في هذا الفضاء، وبالتالي كانت الرواية بنت المدينة حيث الحياة والصخب، لتظل الصحراء موطنا للصمت والسكون تسكنه الأساطير والخرافات، وحول فكرة الفقار التي تحملها الصحراء يرى الفيلسوف الفرنسي **ميشال رو** «إن الفضاء الصحراوي يمثل لا فضاء تكسوه إيحاءات سلبية فهو فضاء الرتابة والسقم لا يتمتع بالجمال والعظمة وهو على عكس الطبيعة» (Michel Roux ،1996).[1]

لم تكن الصحراء في الوطن العربي–الذي يعد جزءا من الصحراء–معادلا موضوعيا لدى روائييها، لكنها تسللت إلى بعض الأعمال بأشكال مختلفة، كان أبرزها استعارتها لتصوير بعض النزعات المصطبغة ببعض ما ترسب من ولع خاص سكبته الرومانسية العربية على الطبيعة. (صلاح صالح،1996)[2] فهي بالنسبة للأدباء وخاصة الروائيين فضاء للتخييل والتخيلات، مما حدا بها أن تصبح تيمة من التيمات المهمة. لكن هناك فرقا بين روايات كتبها أبناء الصحراء فهي تقوم على وصف الواقع ورصده، فتصبح فضاء يحكمه الوضوح يثير القلق والتخوف من المستقبل، وروايات كتبها زائرون للصحراء يرونها

فضاء للخوارق والعجائبي منظورا لها من جهة التأمل. فضاء يلفه الغموض وتحكمه الأسرار ليمنح متأمله مزيدا من الشعور بالاستكانة والطمأنينة وكل ما يتعلق بعالم الروح والروحانيات.

لكن الرواية العربية الحديثة والمعاصرة، التي ظهرت ما بعد عصر العولمة وتحولاته الرهيبة، وجدت في الصحراء فضاء يمثّل نوعا من الأصالة المنشودة عثرت فيه على هويتها الخصوصية، لتقطع الكثير من الوشائج مع الرواية الغربية شكلا ومضمونا، وهي وشائج فرضتها سنن احتذاء الرواية العربية بالرواية الغربية مع المؤسسين الأوائل (ميرال الطحاوي،2008)[3]. فمع الروائي الليبي إبراهيم الكوني والأجيال اللاحقة، بات فضاء الرواية يشكل فضاء أساسيا للتخييل والإبداع، فضاء يعبر عن تجربة وجودية وليس فضاء يحضر عبر التخيلات والتأملات فقط.

أما الصحراء في الرواية الجزائرية فباتت فضاء مركزيا منظورا إليه من جهة الهروب منه (واقع يكتبه روائيون من أبناء الصحراء)، ومن جهة أخرى تعد فضاء منظورا إليه من جهة الهروب إليه (تأملات يطرحها روائيون من خارج الفضاء). فقد ظلت الصحراء في مخيال أدباء الشمال فراغا تملؤه الزوابع فضلا عن عدم ثقة أبناء الجنوب من الروائيين بأنفسهم، وهذا ما ترك الرواية الجزائرية، لا تلتفت إلى الصحراء إلا مؤخرا، رغم أن أول رواية في تاريخ الأدب الجزائري كانت كان فضاؤها صحراويا وكتبها كاتب من الصحراء وهي رواية «مريم بين النخيل» للكاتب محمد بن الشيخ من بشار(1905-1938) التي نشرها بالفرنسية (Myriem dans les palmes) سنة 1936، وكذلك «ملحمة راهبة في الصحراء L'Odyssée d'une religieuse au Sahara» للكاتب زايد بوفلج (1909-1993) من عين الصفراء وقد

كتبها أيضا بالفرنسية، وهي قصة حقيقية عاشها الكاتب سنة 1949، في مدينة عين الصفراء بالجزائر.

**3. الصحراء... معضلات وتأملات:** إن الأزمة الأمنية خلال التسعينات وما فرضته من تحولات عميقة مست البنى الفكرية والاجتماعية للمجتمع الجزائري، وما صاحبها من مخاطر دفعت بروائيين جزائريين بالاحتماء بالصحراء كملاذ فرارا من الموت، فكانت موطنا لتجارب حياتية وتخيلات وتأملات فكرية وجدت طريقا لها إلى عوالمهم السردية. وهكذا شكلت الصحراء تيمة لدى الروائيين الجزائريين على اختلاف مشاربهم اللغوية (عربية، فرنسية). وربما هذا الالتفات إلى الصحراء كتيمة هو ما شجّع أبناءها من الأدباء إلى التغلب على خجلهم والكتابة عن هذا الفضاء وزرع الروح فيه سرديا.

**أ-رؤية من الخارج: سحر العجائبي:** ويمثل هذا التصور الروائيون الذين لا ينتمون جغرافيا إلى الصحراء، وبالتالي فهي بالنسبة لهم تدخل في إطار العجائبي والغرائبي ولا تعبر عن تجربة معيشية، ومنهم:

•الطاهر جاووت: (1954-1993) حيث كتب سنة 1987 "اختراع الصحراء/l'Invention du désert ". طرح من خلالها أزمة الهوية التي برزت في ظل الصحوة الإسلامية التي أفرزتها التعددية السياسية مطلع تسعينات القرن الماضي بالجزائر. فعالج بعض القضايا التي كان يصعب التحدث عنها آنذاك.

•رشيد بوجدرة: كتب رواية «تيميمون»، حيث فر من الشمال هروبا من تهديدات الجماعات الإرهابية ليجد في الصحراء مستقرا يمنحه حالة من الهدوء والتأمل، ففي هذه الواحة بعيدا عن صخب المدن وأصوات الرصاص والمتفجرات طرح بوجدرة في هذه الرواية تساؤلات وجودية في الفلسفة والتصوف. فجاء الفضاء متلبسا بلبوس الحيرة والعجب، والرهبة والجمال

والسحر والخوف والعجائبية، وتلك هي حقيقة فضاء الصحراء في النصوص الروائية العربية (حبيب مونسي،2001).[4]

•إبراهيم سعدي: كتب سنة 2015 «بحثا عن أمل الغبريني» وتلتقي هذه الرواية مع رواية «تيميون» لبوجدرة في أن الشخصية الرئيسية تفر من الشمال هروبا من العمليات الإرهابية.

•محمد ديب: (1939–2004) كما جسّد الروائي في روايته «الصحراء بدون منعطف/Le désert sans détour» تيمة الصحراء بمسحة سريالية وخلفية غنوصية عندما ماثل بين الواقع ومآل الأوضاع المتوترة في جزائر العشرية السوداء، ليعيد للصحراء صورة التيه والضياع والوحل ورمزية اللامعنى والخوف والموت.

•السعيد بوطاجين: «أعوذ بالله» في هذه الرواية التي نشرها سنة 2007 وظف السعيد بوطاجين فضاء الصحراء منطلقا من علامات تاريخية وسياحية ودينية ليتساءل عن جدلية الإنسان مع الكون والوجود. وكانت الصحراء له بمثابة موطن للأسرار والخوارق يعيش فيها الإنسان والجن جنبا إلى جنب مما يسمح بإعطاء تفسيرات غيبية لبعض القضايا وخلق أساطير تعد تفسيرا لقضايا سياسية ودينية معقدة (طابوهات).

•عز الدين ميهوبي:( اعترافات–اسكرام) في هذه الرواية التي نشرها سنة 2004، تحدث فيها عن مدينة تمنراست بشكل تنبؤي استشرافي، وما سيطرأ في هذه المدينة المعولمة من تحولات اقتصادية واجتماعية وفنية وإعلامية في آفاق 2004، ساحبا تلك التحولات على العالم بأسره.

**ب–رؤية من الداخل:**

**التجربة والواقع:** ظل أبناء الصحراء إلى وقت قريب، يتهيّبون الكتابة عن عوالم أمكنتهم، إما بسبب قلّة الجرأة، أو عدم الثقة أدبيا بأدواتهم الفنية،

•**مليكة مقدم:** وهي طبيبة تعود أصولها إلى مدينة بشار هاجرت إلى أمريكا وهي تكتب بالفرنسية، نشرت سنة 1993 روايتها (الممنوعة/L'interdite) حيث وازنت بين قساوة عالم الحيات والأفاعي وقساوة القهر الممارس ضد الأنثى في المنازل في هذه الصحراء التي قضت فيها طفولتها وبداية شبابها.

•**عبد الحفظ بن جلولي:** كتب سنة 2013 «على الرمل تبكي الجراح» وهي رواية تطرح التحديات التي تواجه القصر (تجمع سكاني) في ظل زحف العولمة وما يطرأ عليه من تحولات، سواء مادية تمس المكان أم اجتماعيات تتعلق بتغييرات طرأت على العادات والتقاليد.

•**حاج أحمد صديق الزيواني:** كتب سنة 2013 روايته الأولى «مملكة الزيوان» التي رصد فيها عبر ذاكرة الصبي وسيرة الشاب اليافع تحولات منطقة توات اجتماعيا وثقافيا واقتصاديا والوضع القهري للمرأة، مبرزا بتركيز عال جمالية المعالم الجغرافية والاجتماعية وحتى الروحية، حيث عاد للماضي البعيد لهذه المنطقة/الصحراء محاورا أساطيرها ورموزها وحتى رمالها، ليكشف عالم الأجداد الذي كانت تحكمه التعاويذ والرقية والتمائم. فكانت الرواية تصويرا جغرافيا وتصويرا روحيا أيضا لحياة القبيلة التي تعيش تحت سطوة المقدس من طرق في اللباس وعادات للزواج.

ثم أصدر سنة 2015 روايته الثانية «كاماراد، رفيق الحيف والضياع» وهي أولى رواية في الأدب الجزائري تكسر النمطية في الكتابة عن الصحراء، كما تجاوزت التيمات التقليدية إلى إنتاج نمط جديد تمّ فيه تقويض النسق الصحراوي المهمش، والانفتاح على هامش آخر هو الجوار الإفريقي الموغل في مآسي الانقلابات والحروب الأهلية والفقر والأوبئة، والحالم بالعبور إلى الضفة الأخرى من خلال الصحراء الجزائرية، ويدخلنا في تجربة أخرى من غواية السرد الذي يتلبس الأسماء والأشياء والشخصيات والمكان والمغامرة، هذه الرواية تؤسس لعهد جديد، ليس فقط، لمتخيّل الصحراء، بانخراط أبناء الصحراء

في كتابة الرواية، وتقويض سلطة نسق الكتابة الشعرية التي ظلت الثقافة الصحراوية مكبّلة بها، بل تجاوز الأنساق السابقة في الكتابة عن الصحراء وخلق وعيًا آخر ينفتح على الآخر، لتأكيد الذات التي ترى وتعي وتتفاعل وتطرح أسئلة جديدة، أهمها السؤال الوجودي المرتبط بظاهرة الحرقة أو الهجرة السرّية التي يمارسها الأفارقة عبر الصحراء الجزائرية، بحثا عن الخلاص عبر مغامرة تراجيدية ليصنع من هذه المغامرة نسيجا سرديا مختلفا وكونا سرديا مبهجا(الصديق حاج أحمد الزيواني،2015).[5]كما كتب سنة 2021 رواية أخرى بعنوان "منّا: قيامة شتات الصحراء" تطرح واقع التوارق بعد جفاف السبعينات وترحالهم في الصحاري الإفريقية بحثا عن الماء واستغلالهم من طرف القذافي في حروبه وفي طموحاته نحو تنصيب نفسه ملكا للتوارق.

•**عبد القادر ضيف:** «تنزروفت» (2015): تنزروفت الذي تحمله الرواية عنوانا هو تلك الصحراء في عمق الجنوب الغربي، صحراء خالية تنعدم فيها الحياة، لكنها تحافظ على أسطوريتها، فقد قيل إن من يموت فيها تبقى جثته "محفوظة" في غياب البكتيريا، حيث أن طيارا فرنسيا سقط هناك بطائرته سنة 1933، ولم يعثر عليه الدرك الفرنسي إلا قبيل استقلال الجزائر يوم 11 فيفري1962، كانت جثته كاملة كأنه هلك قبل مدة قصيرة.

•**جميلة طلباوي:** «الخابية»، هذه الرواية الصادرة سنة 2014 تعكس سمات النص الذي يهتم بتيمة الصحراء، من الناحية المكانية والناحية الزمانية **أيضاً** وفق خطاب يتجه إلى الآخر القريب والبعيد، من هنا كانت الكونية ظاهرة توجهت من خلالها الروائية لتنقل الحياة بكل تفاصيلها للمرأة البشارية، وهي بذلك تعمل على رصد أمنيات البسطاء من الناس تلامس من خلالها جمالية لا متناهية في الحوار الذي قدمته للمتلقي بين الشخوص والذوات التي أدارت مشاهد الرواية، في نسقية لا يمكنك الفصل فيها بين التراث المادي واللغة التي

اكتسبت العصرنة لمواكبة الأحداث، في صراع بين الأنا التي تريد إحضار الماضي بكل ما يحمله من رموز للأشياء ولغة للأمكنة التي تغيرت عبر الزمن لكنها تظل الهاجس القوي للبعض. كما كتبت حول الصحراء «وادي الحناء»:2017 و«قلب الإسپاني»:2018.

أما في روايتها «وادي الحناء» التي أصدرتها سنة 2017 فهي رواية تمثل ذاكرة المكان الصحراوي وتاريخه وحكاياه بمسحة من الحنين والخوف من المسوخ وعاديات الزمن وكواسر الثقافات الزاحفة على القيم والرموز والعلامات والهوية المكانية. رواية غاصت في البيئة الصحراوية راسمة ملامح مجتمع له خصوصية الزمان والمكان، فللمكان في رواية «وادي الحناء» طعم خاص ونكهة خاصة ودلالة خاصة، إذ يبدأ المكان من مغازلة المتلقي واستدراجه إلى رحابه لاحتوائه والانفراد به من عتبة العنوان (وادي الحناء)، فالمكان هنا بقدر ما هو عميق وسحيق وممتد بل ومخيف تضمر ذاكرته الخوف من مجهول قد يستيقظ في أية برهة، غير أن هذا الوادي المخيف ما لبث أن فاض بالحناء فهو أشبه بوادي عسل أو لبن صاف يغترف من حياضه السعداء، فالعنوان يوحي بالاتساع وامتداد الأفق والامتلاء يختزل بتكثيف شديد حكاية إنسان في علاقته بمكان ذي خصوصية جغرافية وبشرية وطبيعية ألا وهو الصحراء التي من معانيها القحل والقحط والسراب والخراب، إلا أن للحياة فيها على الرغم من صعوبتها مذاقا خاصا وسرا خاصا كمذاق الحناء وسر الحناء في أيادي العذارى رمز الفرحة وأيقونة الحب والجمال والفرح (حسن بوحسون،2017)[6].

•**بوفاتح سبقاق:** الإعصار الهادئ 2007 الذي تحدث في وروايته «الإعصار» عن صحراء تقرت موظفا بواقعية مسميات الشخوص والأماكن.

•**نوار ياسين:** «صحاري السراب»2017 يريد الكاتب ياسين نوار لروايته أن تشكل عالما أسطوريا ساحرًا واقعيا بلمسات الخصوصية السردية العربية، بعيدا عن صخب الرواية الغربية وأجوائها المدنية والعصرية والتكنولوجية، وكأني به

يعود إلى إنسانية الإنسان وجلال المعنى الكينوني/ الوجودي، أو هو يريد أن يقرأ الراهن العربي بعيون تراثية رمزية. ولا يمكن أن نحدد بالتدقيق الصحراء التي يتحدث عنها النص، ففيها كل ملامح الصحراء العربية، من دون ذكر لدولة محددة، ومن دون مكاشفة لبعض العناصر الثقافية والمجتمعية التي قد تساعد القارئ في معرفة الدولة التي توجد فيها صحراء الرواية، فملامحها متوفرة في كل دولة/مملكة عربية، ومن ثمة فرمزيتها وملابساتها تصدق على كل إنسان عربي، وعلى كل مجتمع عربي، وعلى كل خطاب رسمي عربي عبر التلميحات السردية والإشارات الدلالية بطبيعة الحال الفني–الفكري...

•**عبد الله كروم:** له حول الصحراء «الطرحان»2022 حول عملية التجنيد الإجباري التي فرضتها فرنسا على الأهالي أثناء الاستعمار ثم رواية «غرنوة»2023 وهي رواية ذات بعد إفريقي حول جرائم التفجيرات النووية التي قامت بها فرنسا في الصحراء الجزائرية، وهذا البعد الإفريقي يكاد يكون منسيا في وعينا الوطني وتطرح الرواية ضرورة الانفتاح عليه كبعد استراتيجي.

**4.الزيواني... تيمات جديدة:**

**أ–هوية المكان... ومكان الهوية:** يعد المكان مكونا من مكونات الرواية، هو العمود الفقري الذي يربط أجزاء النص الروائي ببعضها البعض. فالبراعة في توظيف المكان في الرواية قد يكشف عن« شبكة العلاقات التي تربط الأشخاص بالمجال المعيشي ارتباط، وجود وانتماء وهوية» (**حبيب مونسي،2001**)[7]، وقد كان للمكان حضورٌ قويٌ في رواية «كاماراد» وهو شرط من شروط اكتشاف الآخر للذات ونجد أنّ الفضاء بأمكنته المختلفة عنصر ضروري لتحديد معالم الهويّة، فرديّة كانت أم جماعيّة، فالذات تتكشف في الفضاء مهما تنوع وتعدد في الرواية. فالمكان يبقى دائما يمثل الأخلاق، وكأنّ الشخصية في هذه الرواية تذهب للشمال لتقرأ ذاتها في مرآة الآخر. كما

أنه المكان يعبر عن هوية الآخر وعن الصراعات والصدامات التي تحدث عند التقائه بالآخر المشابه له والذي بدوره يتحول إلى ذات تبحث عن هويتها في ظل تغيير المكان الأصلي له وما تسفر عنه الرحلة.

وقد تعددت الأمكنة في الرواية وشكلت همزة وصل بين بداية رحلة البطل ونهايتها، من حيG مكلي بمدينة النيجر وصولا إلى حدود سبتة الإسبانية. فحيG مكلي الذي عدَّه الكاتب" أفقر الأحياء بالعاصمة نيامي النيجر، هو مكان بداية تشكل أحداث الرواية فيصور لنا واقع الحياة في هذا الحي وأنه السبب في قرار هجرة مامادو ورفاقه انطلاقا منه وصولا إلى عين قزام وآخر نقطة في الحدود الفاصلة بين المغرب وإسبانيا، وهذه أهم الأمكنة التي مرّ عليها في تجربته هذه والتي تمثل فضاء الصحراء:

●**مدينة تمنراست:** جاء في الرواية أن هذه المدينة «طالما هي تجمع لمجتمعات إثنية مختلفة افريقية زنجية وطارقية، تفاصيل المكان تشبه G مكلي ونيامي وكل بلاد الله بإفريقيا" (الصديق حاج أحمد الزيواني،2015)[8]، كما يصور لنا أماكن تجمع ليكاماراد وما تتوفر عليه من قيم سلبية من تزوير الأموال والمخدرات وبيوت الدعارة وغيرها من الأعمال المشبوهة، فيوجد بتجمع الليبيراليين "جماعة مختصة بتزوير النقود والعملة المحلية واليورو» (الصديق حاج أحمد الزيواني،2015)[9]، وهو عبارة عن مكان مشبوه ونقطة حمراء عند الأمن فحتى هم لا يستطيعون الدخول إليه، خوفا عن أنفسهم لذا وجد الكامارادیون ضالتهم هناك. فهذا الآخر برغم تغييره للمكان وجد نفسه دائما مهمّشًا وينظرون إليه نظرة احتقار لا لشيء آخر سوى لأنه كامارادي، إلا أنه تحمّل كل شيء في سبيل الخلاص، هذا الآخر الذي يبحث عن ذاته الحقيقية رغم كل الزيف الذي يحمله ورغم انسلاخه من كل المبادئ التي كان يسير عليها في "نيامي" فالواقع الذي همّشه جعله يسعى لإبراز ذاته وهذا عن طريق كسب المال عبر ممارسة كل الأعمال المشبوهة والممنوعة.

●**مخيم تهقارت الشومارة:** في هذا المخيم تباع جوازات السفر المالية المزورة، ناهيك عن المخدرات التي كان يبيعها الرفاق بتلك الأحياء وانتشار بيوت الدعارة. وقد قام"مامادو" بترويج العملة الصعبة المزورة بالمدينة مقابل الحصول على المال من أجل شراء جواز سفر مزوَّر من هناك ليضمن انتقاله في ولايات الجزائر من دون مساءلات الشرطة له.

●**مدينة أدرار(روما ليكاماراد):** تعد سوق اليد العاملة الكامارادية، كل المقاولين يأتون إليها بحثا عن الرجل الأسود الإفريقي للمساعدة بأثمان بخصة عرفت في الرواية بحي"ابني واسكت" الذي يعد ملجأ آمنا للأفارقة، وقد عمل مامادو بطل الرواية في ورشات بناء مقاولين بالمدينة للحصول على المال لاستكمال رحلته لمدة أيام قليلة فقط. وفي هذا المكان يتجلى استغلال الآخر الأسود له في العمل بمبالغ زهيدة.

●**مغنية( مالطا ليكاماراد):** ذهب مامادو إلى مغنية بتلمسان، رفقة رفاقه الكاماردیين وهدفهم الوحيد هو التسلل بين حدودها وصولا إلى الجارة المغربية بمدينة وجدة المغربية والتي أطلقوا عليها اسم( قبْرص ليكاماراد) وصولا إلى(جزيرة لامبيدوزا ليكاماراد ) بمدينة الفيدق قبالة سبتة الإسپانية، لاجتياز السلك الحديدي إلى جنة النعيم في أوروپا.

**ب-ثنائية الشمال والجنوب:** تبدو الشخصية الإفريقية ذات خصوصيات متفردة في مقابل خصوصيات قومية أخرى، وهذا نابع من معطيات تاريخية وسياسية قديمة تحت ظل العنصرية من خلال المستعمرات الأوروپية في إفريقيا التي عملت على طمس هوية الرجل الأسود واعتباره التابع الأبدي للرجل الأبيض، فهل يرضى الرجل الأبيض التنازل عن عرشه ويمد يده للرجل الأسود ويوحّد الرؤى معه؟ وإن فعل هل تكون هذه المصافحة نابعة عن قرار نفسه

وهل ينتصر على ثقافته القائلة بالعكس؟ وهذا ما سنحاول استخراجه من رواية كاماراد:

لقد جسّد الزيواني في الرواية ذلك الحوار بين الشمال والجنوب، حيث يطمح سكان الجنوب الإفريقي –مامادو– إلى الهجرة نحو الشمال الأوروبي هروبا من جحيم أوطانهم فيما يطمع سكّان الشمال الأوروبي– المخرج الفرنسي جاك بلوز – في الهجرة نحو هذا الجنوب المنسي من أجل الاستثمار في معاناة الأفارقة وترجمتها إلى أعمال سينيمائية يحققون بها السّبق الفني عند العودة إلى بلادهم.

•نظرة الأوربي لإفريقيا تنّم عن ذات مُتعالية تعيش في رفاهية فاخرة فهو لم ير إفريقيا بعيون إفريقية وإنما بعيون أوربية ساخرة فالجنوب ما هو إلا مطمع فنّي يحقق به هدفه المنشود رغم أن الحياة فيه منبوذة «ففي فترة العلاج التي دامت ستة أشهر كاملة، اغتنم المداوي الفرصة، بحث بوسائط (ميديا) المعرفة عن أفقر دولة إفريقية، تصلح أن تكون أرضية لبطله، حفر كثيرا...في كل مرة كانت سعادة دولة النيجر هي المرشحة بامتياز... لربمّا كانت دهشته أكبر مما توقع عندما وجد هذه الأخيرة لا تصّنف كأفقر دولة على مستوى إفريقيا فحسب وإنّما على مستوى العالم...سرّ كثيرا بهذا الصيد ما جعله يستعجل حصص الشفاء من مُطّببه..» (الصديق حاج أحمد الزيواني،2015.[10]

•من هنا بدأت رحلة جاك بلوز إلى أفقر دولة في إفريقيا بحثا عن قصص الهجرة السرية نحو أوروبا حاملا في يده كتابا بعنوان "جوانب من الحضارة الإفريقية" على أنه كان مولعا بالثقافة الإفريقية فهل يؤثر هذا الكتاب فيه ويغيِّر نظرته تجاه الآخر؟ باعتبار نيجيريا مستعمرة قديمة لفرنسا؟.

•كان الرجل الأبيض ينظر إلى مطاعم نيامي نظرة دونية مقارنة بمطاعم باريس «في اللحظة التي ذهب فيها النّادل بالطلبات، خزر بلحظ العين في أنحاء المطعم (طاولاته، كراسيه، أكوابه، موسيقاه لا تدنو حتّى إلى التصنيف

الرابع من مطاعم الشانزيليزيه» (الصديق حاج أحمد الزيواني،2015)[11]... هذه المشاهد تعكس التباين الكبير بين الشّمال والجنوب ونظرة هذا الأجنبي للآخر الإفريقي.

**ج-ثنائية العبد والسيّد:** إن اختيار الحاج أحمد الزيواني لشخصية فرنسية في الرواية لم يكن عبثا وإنّما لعلاقة فرنسا بالمستعمرات الموجودة بإفريقيا والأثر الكبير الذي تركته في هذه الدول حتى بعد استقلالها وهذا ما صرّح به في إحدى المقابلات التليفزيونية (الصديق حاج أحمد الزيواني،2013)[12]، وهنا يَطرح بشكل واضح جدلية العبد والسيّد. ويتضح لنا من خلال الرواية أن مقصد المخرج كان شخصيا فهو لم يكن يريد إزالة الستار عن واقع إفريقيا وحال شبابها المزري بين الفقر والقمامة وإنما يبحث عن خلاص له يُرجع له هيبته في مهرجان" كان" الفرنسي.

-علاقة مامادو وجاك بلوز الفرنسي تعيد فتح ملف التاريخ الاستعماري إذ يظهر الإفريقي موضع التابع الأبدي للرجل الأبيض بل نجده يبيع قصّته بثمن بخس ويقدم له بعض التنازلات التي تجعله يطمئن أن صورة الإفريقي التي يحملها في مخيّلته مازالت لم تتحوّل بعد، إذ يعتبره مجرد هامش وطريقا معبدا لنجاحه، وهو في نظره مجرّد موضوع لفيلمه حتى ينال السعفة الذهبية، فأكبر حلمه السير على البساط الأحمر في فرنسا وبالتالي وجد في مزابل إفريقيا الوجه الحقيقي للقصة التي يبحث عنها.

-يبدو جليا في الرواية أن هذا الفرنسي هو صاحب السلطة وهو الآمر والناهي «أخرج مسجله الصوتي الصغير، ديكتافون ومفكرته الفاخرة، وضعها على الطاولة، استلّ قلما مذهّبا من جيب قميصه السماوي وقال للكمارادي الحراق: إحك يا مامادو: فطفق مامادو يسرد حكايته» (الصديق حاج أحمد الزيواني،2015)[13]. فالمحرك الحقيقي لقصة مامادو هو فعل الأمر (إحك)

الذي أطلقه المخرج الفرنسي ومنه بدأت قصة الفتى الإفريقي، فهذا المخرج سيدفع له أموالا مقابل ذلك، وما على السارد إلا التعمّق في السرد والتدقيق في كل شيء عاشه في طريقه «إن أنت حكيت لي التفاصيل الخاصة برحلتك نحو الجنة الموعودة بمحطاتها وأهوال أحداثها السِجال... فإني أعدك بمفاجأة لا تقدّر بثمن.... ها هي 5000 فرنك سلفًا فوق الحساب» (الصديق حاج أحمد الزيواني،2015)[14] وقد وافق على ذلك كيف لا والمال جاءه من رجل أبيض يقدّسه «لا تقلق مون باطرون، سأسردها لك ليس بالتفاصيل كما طلبت فحسب، إنما بتفاصيل التفاصيل...» (الصديق حاج أحمد الزيواني،2015).[15]

–تبرز خلف شخصية جاك بلوز صورة ذلك الأوروبي الذي مازال يتعامل مع الرجل الأسود على أنه شخص غير ناضج وساذج وهذا ما نلاحظه في آخر الرواية، إذ بعد انتهائه من السرد سلّمه هدية تمثلت في آلة التصوير الخاصة به وطلب منه أن يقوم بإخراج شريط وثائقي عن حياة البؤس في نيامي ينقل من خلاله معاناة أبناء حيّه وأبناء نيجيريا بصفة عامّة إذ يقول «بإمكاني أن أغدق عليك المال مون كاماراد كما توهمت، لكنه سيزول مع مرور الأيام، هناك مثل صيني يقول: لا تعطنيي السمكة بل علّمني كيف أصطادها. أجل سأعطيك نصيبا من المال لستر أحوالك مع ما يمكن أن تحتاجه خلال التصوير والتنقل والمصاريف» (الصديق حاج أحمد الزيواني،2015).[16]

**5.خاتمة:** إن ما يكتبه اليوم روائيون جزائريون ينتمون جغرافيا إلى الصحراء يمنحهم عوالم سردية غير نمطية كما يمنح الرواية حقلا تجريبيا ينفتح على بعدنا الإفريقي المغيب في تفكيرنا أو **الذي نمارس نحوه نوعا من** النكران هروبا من ذاتنا بفعل ذلك الهوس الذي تسرب لنا تجاه الآخر غير الإفريقي.

إن ما يكتبه الحاج أحمد الزيواني هو تأثيث جديد لفضاء الصحراء في الروايات الجزائرية بعيدا عن تلك الهندسات التي كانت تراه فضاء أسطوريا تلفه مسحات وسحنات من العجائبي والغرائبي تصل به حد الأسطورة، فأضحى فضاء واقعيا ترسم حركيات شخصيات تعيش فيه تجربة وجودية واقعية.

إن الصحراء في روايات الزيواني وجميلة طلباوي ولحبيب السائح وعبد الله كروم والسائرين في هذا الفلك الجديد لم تعد مجرد مكان ترسمه حركة الشخصيات أثناء الحدث وهو يحدث، بل صارت هي البطل في الرواية وتؤدي دور البطل والمكان معا محكومين إلى زمن أزلي، مما يجعل الصحراء هي الرواية كلها، فروايات «الخابية»، «وادي الحناء»، «قلب الإسپاني» لجميلة طلباوي، ثم «مملكة الزيوان»، «كاماراد»، «منا» للزيواني، وكذلك «الطرحان»، « غرنوة» لعبد الله كروم، ليست روايات تكتب عن الصحراء بل هي روايات تكتب الصحراء، باستحضار المكان والزمن والشخصيات، وكأن هؤلاء يريدون إنطاق الرمال والفيافي ليزرعوا فيها الحياة، مثلما فعل إبراهيم الكوني وعبد الرحمن منيف وخليل النعيمي، فصارت الصحراء الجزائرية التي تشكل 84 بالمائة من مساحة الوطن هوية ثقافية، وليست مجرد مكان أسطوري يقصده السياح المهوسون بالبحث عن العجائبي والغرائبي، فالصحراء اليوم بأقلام روائييها فضاء واقعي يطرح مشاكله وتاريخه عبر نظرة عميقة ملؤها التأمل الذي تمنحه شساعتها، وليس مجرد كتابة تبحث عن التسلي والمتعة. فإذا كانت الصحراء قديما تعد منبت الشعر العربي فإنها اليوم تسهم في إبداع روائي متميز، لتجعل من الرواية شعر عصرنا الحديث، مما يعني وجود خيط رفيع ممتد بين الشعر والرواية.

## 6. قائمة المراجع:

1–بوداود وذناني: فضاء الصحراء والسرد السياحي في الرواية الجزائرية: رواية تيميمون لرشيد بوجدرة نموذجا (2017): (https://www.asjp.cerist.dz/en/article/95355) Le 01/06/2021

2–حسن بوحسون(2017): رواية (وادي الحناء) للكاتبة جميلة طلباوي بين الطابو والحلم (2017). مجلة مسارب الالكترونية: ttps://massareb.com/?p=11078: يوم 2021/05/25

3–حبيب مونسي: فلسفة المكان في الشعر العربي (قراءة موضوعاتية جمالية). منشورات اتحاد الكتاب العرب. دمشق. 2001.

4–الصديق أحمد الزيواني: حوار مع فرانس 24. يوم 18–03–2013 على 15:10 سا.

5–الصديق حاج أحمد الزيواني: كامارد رفيق الحيف والضياع. فضاءات للنشر والتوزيع. الأردن. 2015.

6–صلاح صالح: الرواية العربية والصحراء. منشورات وزارة الثقافة. دمشق. 1996.

7–ميرال الطحاوي: محرمات قبلية/المقدس وتخيلاته في المجتمع الرعوي روائيا. المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء. 2008.

8- Michel Roux : Le Désert de sable. L'Harmatton.Paris. 1996. p10

## 7. الهوامش:

1-Michel Roux: Le Désert de sable.

L'Harmatton.Paris. 1996.p10.

2-صلاح صالح: الرواية العربية والصحراء. منشورات وزارة الثقافة. دمشق. 1996. ص211.

3-ميرال الطحاوي: محرمات قبلية/المقدس وتخيلاته في المجتمع الرعوي روائيا. المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء. 2008. ص28.

4-بوداود وذناني: فضاء الصحراء والسرد السياحي في الرواية الجزائرية :رواية تيميمون لرشيد بوجدرة نموذجا(2017): (https://www.asjp.cerist.dz/en/article/95355) .Le 01/06/2021

5-الصديق حاج أحمد الزيواني: كاماراد رفيق الحيف والضياع. فضاءات للنشر والتوزيع. الأردن. 2015. ص 230.

6-حسن بوحسون(2017): رواية (وادي الحناء) للكاتبة جميلة طلباوي بين الطابو والحلم(2017). مجلة مسارب الالكترونية: ttps://massareb.com/?p=11078: يوم 2021/05/25.

7-حبيب مونسي: فلسفة المكان في الشعر العربي (قراءة موضوعاتية جمالية). منشورات اتحاد الكتاب العرب. دمشق. 2001. ص71.

8-الصديق حاج أحمد الزيواني: كاماراد. ص15.

9-نفسه: ص24.

10-نفسه: ص32.

11-نفسه: ص31.

12-الصديق أحمد الزيواني: حوار مع فرانس 24. يوم 18-03-2013 على 15:10 سا.

13-الصديق حاج أحمد الزيواني: كاماراد ص32.

14-نفسه: ص31.

15-نفسه: ص32.

16-نفسه: ص 360.